الفلسفة والدين
"الاتفاق والافتراق"

بقلم: مارك أونغلاري

ترجمة نور الدين علوش[1]

مما يلاحظ على العلاقة التي تربط بين الفلسفة والدين أنّها تلتقي في الكثير من المسائل المطروحة من طرفيهما: مكانة الإنسان في الطبيعة، الخير والشر، ومسائل أخرى، بالإضافة إلى توظيف رجال الدين لمصطلحات فلسفية؛ كما نجد عند توما الاكويني، والأمر نفسه ينطبق على الفلاسفة لمفهومهم الفلسفي للإله، علاوة على ما نجده من اعتناق الكثير من الفلاسفة الذين يعتنقون أديان خاصة. هذه هي بعض الأسباب لإمكانية أن تكون الفلسفة دينية، وأن يصبح الدين فلسفيا. في حين أن الجواب سيكون ايجابيا في نظر الكثير من الناس، لكن سنحاول تبيان أنّ دمج الدين في الفلسفة أو العكس؛ لن يكون وبالا إلا عليهما بمعنى سيفقدان مميزاتهما في إطار اندماجهما. للتفصيل، في رأينا هذا، علينا تحديد بعض الخصائص النوعية للفلسفة من جهة، ومن جهة أخرى الخصائص النوعية للدين.

اعتبارات عامة حول الدين والفلسفة:

يعد الوحي الميزة الأساسية لأي دين متعارف عليه، وهو الشرط الأساسي لقيام أي دين، ولا يمكن أن يكون منبثقا عن الإنسان وحده؛ إذن لا بد من مبدأ خارجي تصدر عنه الرسالة السماوية بأي طريقة كانت، في النهاية ما يعرف به الدين هو الرسالة السماوية أي الوحي. في ما يخص المبدأ نفسه، نجد حالات مثل البوذية وأديان شرقية أخرى يكفي أنّها لا ينطبق عليها مفهوم الإلوهية: وجود أديان بدون اله، لكن هذه الحالات لا تزعجنا، لأنّنا يمكن أن نحيلها إلى مفهوم المقدس؛ فالدين هو العلاقة

(1) مترجم، من المغرب.

التي تربط الإنسـان بما هو مقدس. بالإضافة إلى أنّ المقدس يحيل حسـب الأديان إلى أفعـال وأشـياء وإلـى مـا يعتبره كل ديـن مطلق. وبعبارة أخرى، فمـا هو مقدس لدى كـل دين لا يمكن مناقشـته أو إنكاره من داخل الدين نفسـه.كما أن لكل دين مقدسـاته التي لا تناقش ولا تبرر عقليا. وفي جميع الحالات، التبريرات الدينية الطارئة لهذا الأساس الدينـي لا تنتمـي إلـى حقيقة الدين نفسـه. ما نريد قوله هو أن هذه التبريرات تنشـا بعد ظهـور الديـن، بسـبب تربوي وليس ديني. ثانياً: هـذه التبريرات اختيارية وغيابها لا يؤثر على جوهر الدين. ثالثاً: هي لا تنفع الإيمان الأصيل الذي لا يحتاج إلى تفسير.

أي إنّ التسـويغات العقليـة للديـن تجـازف بأن تكون عبـارة عن إقرارات بضعف المذهـب الدينـي المحتـاج إلى التبريـر؛ بالمعنى القدحي لهذه العبـارة. ماذا نقول إذن حول الفلسفة؟ ليس أكثر مما قلناه حول الدين، سنحاول تعريفها لأجل تحديد مميزاتها. على ما يبدو ما سيقال حول الفلسفة سيكون الوجه المقابل لما قلناه حول الدين. لنفصل ذلـك نقطـة نقطـة. فالفكـرة الوحيـدة المميزة للديـن، أي الوحي تجعل الفلسـفة حائرة ومترددة. ماذا يمكن القول حول العقل المحك الحقيقي لقبول الاستدلال الفلسفي؟

فديـكارت لـم يخـدع عندمـا قال:"اقـدر ديننـا، لكـن ما هـو مؤكد هـو أن طريق الحقيقـة ليـس مفتوحـا للجهلة أكثـر من العلماء، وأن الحقائق الدينية المنزلة إلينا فوق طاقـة عقولنـا، وللنجـاح فـي اختبارها لا بد من طلب العـون الإلهي". فهذه الأفكار لا تتنافى مع النصوص، التي حاول فيها ديكارت إثبات وجود الله بأدلة عقلية؛ في كتابه "تأملات" مادام الأمر لا يتعلق بحقائق دينية بل بحقائق عقلية، مقبولة لدى الفيلسوف.

إنّ الدين وبطريقة غير مباشرة في المقطع المذكور أعلاه يتحدث عن اله الأديان، فـي حيـن أنّ ديـكارت تحـدث عن اله الفلاسـفة وحـاول تأكيد بعض مميزاتـه. لنأخذ مثـالا علـى الحقيقـة الدينية، حيث نجد سـبينوزا يذهب بعيدا حينما تقر بعض الكنائس الإنجيلية أنّ الإله أخد شـكلا إنسـانيا، هنا، أُقرّ بأنني لا أفهم ماذا يريدون بقولهم هذا حتـى ولـو افترضنـا أنّ ذلـك صحيحـا؛ فالأمـر أقرب إلـى القول بأنّ الدائـرة أصبحت مربعـا". ولا أحـد ينكـر أنّ الحقائـق الدينيـة تشـوش على العقل. هـذا لا يعني أنّه من أجل هذا السـبب، على الفيلسـوف رفضها دون شـروط. فهذا الرفض لن يبرر إلا من قبل التيار العقلاني. لكن من أجل القبول بفكرة الوحي الذي يتمظهر بشكل لاعقلاني؛ على أنه أصل الحقيقة، علينا أن نتجاوز الخطوة التي بإمكانها أن تخرجنا من الفلسفة.

فالفيلسوف الأكثر انفتاحا على الأديان، لا يمكنه إلا أن يتحفظ على فكرة الوحي نفسه. كيف يمكن الاختيار بين الأديان المختلفة؟ إنّ الفيلسوف لا يمكنه أن يعتنق دين مجتمعه، كما يفعل أغلبية الناس، بمجرد أنه ولد وتربي في هذا المجتمع؟ وارتباطا بمضمون الأديان نفسها على الفيلسوف أن يحتاط منها. إنّه بإمكاننا دون شك أن نفهم من أجل الاعتبار في أية حالة؛ أنّ الفيلسوف لا يقبل أية حقيقة دون أن تكون بديهية في ذاتها، ودون أن تكون مبررة نظريا.إذن فما لاحظناه هو أنّ التأسيس الديني لم يبرر قبليا؛ وحتى لو تم بعديا، فالأمر يتم من طرف شخص قبل به في أول الأمر دون تبرير نظري. فكيف يمكن للفيلسوف أن يستسيغ هذا القبول؟ كيف يمكن أن لا نقبل التبرير البعدي باعتباره تضليلا من شأنه تقديم شرعنة فلسفية للموقف، الذي لم ينطلق منه الفيلسوف في أول وهلة؟ فالأساس الفلسفي سيكون خارج الفلسفة.

إذن فالدين مرتاح من هذه الناحية، لأنه يجد مبدأه خارج الإنسان أي خارج الفلسفة. سنعود إلى هذه النقطة في الجزء الثالث من هذه الدراسة. حتى الفيلسوف لا يمكنه عكس الفلسفة رفض التساؤل، أو حتى نقاش بعض العقائد خاصة إثبات القدسية. مما يؤخذ على الفلاسفة أنفسهم اعتبارهم لبعض أفكارهم غير قابلة للنقاش؛ دون أن نزيل عنها طابعها الفلسفي. فالمفارقة بينهما هو أن الفلاسفة أثناء إنتاجهم لأفكارهم التي لا تناقش يتبعونها بتبرير نظري. بالإضافة إلى أنهم مستعدون لأي نقد ولو كان فلسفيا ولا يهددون أي منتقد لهم بلهيب جهنم.

يمكن القول بأن أي خطاب لن يتصف بالطابع الفلسفي دون أن يكون له مبرر عقليا. وبكلمة أخرى، إن معنى وقيمة الفلسفة لا تكمن على الأقل في استدلال أطروحات أكثر من الأطروحات نفسها. بصفة عامة، يمكن القول بأن إذا قبل الدين، فلن تصبح الفلسفة في جزء كبير منها صالحة. وبالفعل هناك بعض العقائد الدينية، يمكن اعتبارها بمثابة أجوبة غير فلسفية على أسئلة فلسفية. وأيضا الفيلسوف الذي يحاول أن يجيب فلسفيا على تلك الأسئلة يبدو من وجهة نظر دينية سخيفا: فلأن الفلسفة لا يمكنها أن تنافس الدين على العصمة، لأنها إنسانية بل أكثر إنسانية؟

سيحاول البحث عن أجوبة ممكنة وبالفعل ستنتقد من طرف معاصريه؛ في حين أن الأديان تبقى أكثر يقينا ما دام مصدرها إلاهي. إذن ما يتبقى للفلسفة هي المجالات التي تركها الدين والتي لا تمس بصفة أساسية خلاص الإنسان: المعرفية والجمالية

على سبيل المثال. لكن المسائل الأخرى الميتافيزيقية والأخلاقية والأنتربولوجية بمعناها الواسع وأحيانا السياسية فمجال المناقشة مغلق. بالمقابل نجد أن كل قضايا الفلسفة مفتوحة للنقاش، لأن أجوبتها غير مكتملة وغير نهائية.

بالنسبة للفلاسفة الدينيين، يكون دور الفلسفة هو إعادة اكتشاف لما جاء به الوحي. هذا التصور حول دور الفلسفة أي خدمة الدين، الموروث عن العصور الوسطى؛ لن يندثر إذا قبلنا به قبل أن نفلسف حقيقة الدين. حتى ولو تظاهرنا بالدفاع عن تصور ما، سنرى بصورة سيئة كيف سيكون بطريقة أخرى "أن الحقيقة لا تضاد الحقيقة" وإذا قبلنا الحقيقة الدينية في الأول، فلن تكون الحقيقة الفلسفية سوى نسخة متطابقة لها أو على الأقل متوافقة معها.

يبقى فقط إيجاد حجج فلسفية لدعم هذه الحقيقة الوحيدة ذات الوجهين. وهذا ما عبر عنه جون بول الثاني في رسالته البابوية الإيمان والعقل" الإيمان والعقل يمكن اعتبارهما جناحان يسمحان للإنسان بالتأمل في الحقيقة"، لكن إذا كانت الاستعارة صحيحة، فعلى الجناحان معا الطيران بطريقة متناغمة. فالطريق والهدف واضحين منذ البداية: عن طريق جناح الإيمان وجناح العقل المنضوي تحته.

ورب معترض يقول: نعم إذا قبلنا بالدين قبل التأمل الفلسفي، فالأمور واضحة فلن تكون الفلسفة فلسفة مادامت نهايتها معروفة وخاصة أنها محددة من خارج الفلسفة. لكن ما الذي يمنع الفيلسوف من اكتشاف مسبقا حقائق، يمكن أن يثبها الدين لاحقاً، ومتبنيا الحقيقة الدينية بعديا وليس قبل انبعاث التأمل الفلسفي؟ هنا لا يمكن إلا أن نقبل ذلك على الصعيد النظري. إذا كان هناك طريق للفكر موجودا قبل هذا فيستحق أن يوصف بالفلسفة. ملاحظتان تفرض نفسهما على كل حال:

أولاً: لا يسعنا إلا أن نلاحظ الصعوبة البالغة في مسار أمثال هذه النظرية، والاستحالة العملية للتحقق من ترتيب مراحله، كما وصفت أعلاه.لا يمكن إنكار انه في جميع الحالات فإنّ الدين يظهر هو الأول في حياة الفرد قبل الفلسفة. حينما يكون عقل المراهق ناضجا للتفلسف يكون الدين راسخا لديه منذ مدة طويلة. صحيح أن بعض الشباب قادر على تحرير نفسه من تأثير التعليم الديني الذي تلقوه. لكن ما نراه في الحقيقة أن الدين يسبق دائما الفلسفة في حياة الإنسان. إذن، "من" سيؤكد الفيلسوف، أن ما أعاد اكتشافه في الدين قد اكتشفه بالفلسفة؟

ثانياً: حتى ولو حاولت الفلسفة تبرير جميع العقائد فلسفيا، فلن تكون سوى نسخة خارجية وعرضية مع الدين. مادام الدليل الجيد للدين هو الوحي وهذا الأخير خارج أي برهان عقلي. علينا الآن، مواجهة التحليلات العامة التي تسبق حالات معينة التي من الممكن عدم التطابق معها. في المقام الأول لاختبار أطروحتنا التي مفادها أنها لا توجد فلسفة دينية، سندرس نصوص فيلسوفين ينطلقان من دين معين (المسيحية).

في المقام الثاني لإبراز أن الدين الفلسفي مستحيل، سنركز على دين خاص اعتبره بعض من الفلاسفة فلسفيا. هنا ملاحظة منهجية تفرض نفسها. هناك الكثير من الأمثلة وهي كثيرة لا تمثل براهين في حد ذاتها. فهي فقط تلعب دورا توضيحيا ليس إلا في توضيح أطروحتنا.

هل فلسفات ليبتز وكانط فلسفات دينية؟

إنّ الفلسفات الدينية التي سندرسها تتمثل في كل من فلسفة كانط وليبنز. لن ندعي بأننا سنخضع كتاباتهم لتحليل شامل لفلسفتهم الدينية، لكن فقط نشير إلى المواطن أو المقاطع التي يحاولان فيها تبرير معتقداتهم الدينية عن طريق الفلسفة. على سبيل مثال مقطع من كتاب" خطاب الميتافيزيقا" لليبنز يعطينا دليلا على مخرج غير مبرر لا فلسفي سواء في المشكلة المدروسة أو في المنهج المتبع. هذا يعني أنه خارج نشاطه الفلسفي، بإمكان الفيلسوف كتابة نصوص يعرض فيها حقائق دينية أو أدبية؛ بشرط أن لا يؤكد بطريقة مضمرة أنّ الأمر يتعلق بنصوص فلسفية؛ أو بالتحديد ما يتعلق بهذا المقطع المذكور أعلاه كما يشير إلى ذلك العنوان بصراحة. بعد تعريف الإله" ككائن مطلق وكامل" وشرحه لمقتضيات مفهوم الكمال، يستخلص ليبنز أن" الإله يتصف بالحكمة العالية واللانهائية وأفعاله أكثر كمالا" و" كلما تعلمنا وتنورنا من الكتب السماوية، كلما وجدناها مرضية لنا ولمتمنياتنا ". مع ذلك، هناك الكثير من الاعتراضات ذات الطبيعة الفلسفية مادمنا في الفلسفة. بالمقابل نجد أن ليبنز يخرج من الفلسفة عندما يكتب: "هكذا أنا بعيد كل البعد عن أولئك الذي لا يعتقدون بوجود قاعدة الخير والكمال في طبيعة الأشياء أو بكمال الله وأن الكتب السماوية ليست جيدة، إلاّ إذا كان مصدرها الله. إذا كان الأمر كذلك فالله يعلم بأنه هو مصدر الكتب السماوية ولم يعمل إلا على معاينتها فوجدها جيدة كما نجد في الكتاب المقدس" فالأهمية

التي تحظى بها سلطة الكتاب المقدس كبيرة في الاستدلال الليبنزي: فالله رأى كتبه ووجدها جيدة، لأن هذا ما تبرر به الكتب السماوية بأنها مقدسة بدون تبرير. لكن بمجرد القبول بسلطة الإنجيل، لن يكون هناك أي استعداد لآي اعتراض فلسفي: فهو غير قابل للدحض بالمعنى الذي أعطاه بوبر.

فالاستدلال الليبنزي واضح جدا على هذا النحو:

1- الكتاب المقدس مستلهم من الله.

2- والحال أن الله يتصف بصفات أخلاقية كثيرة من بينها أنّه لا يغش ولا يغش. إذن الكتاب المقدس يقول الحقيقة.

3- الكتاب المقدس يقول بأن الله بعد أن أرسل رسالاته وجدها جيدة.

4- إذن الله يمكنه أن يتحقق من رسالاته برؤيتها.

5- إذن فالأشياء جيدة بطبيعتها؛ بمعنى في ذاتها لأن الله هو صانعها.

يمكن بطريقة لامبالية أن نقلب نظام الافتراضات الأول والتاني، تبقى ألوهية الكتب السماوية هو العماد الرئيسي لهذا البرهان. وبالتالي فإنّ إقحامه يستلزم بالضرورة كل البرهان. والحال أن إثبات بأن "الكتاب المقدس مستوحى من الله" ليس ولن يكون أطروحة فلسفية، ونؤكد على أن الاستدلال الليبنزي الوارد في كتابه"مقالة في الميتافيزيقا" ليس له أساس فلسفي وأي نسق فكري يعتمد على شيء من الوحي دون أن يبرره العقل، لن يستحق الوصف بالفلسفة.

في المقابل نجد أن سبينوزا يطرح مسالة الكتب السماوية طرحا فلسفيا، لكن بتصور جديد للإله مخالف التصور الديني. حينما يكتب:" فالأغلبية التي تريد أن تفهم الكتب السماوية وتحاول استخراج المعنى الصحيح تطرح منذ البداية الحقيقة الإلهية للكتاب بأكمله"من الواضح، أن تعبير الحقيقة الإلهية مجرد لغو وبالتالي فالقيام ببحث دقيق للكتاب المقدس هو الكفيل بالقول بأنه يقول الحقيقة أم لا. بالنسبة لليبنز فالتوراة تقول الحقيقة، لأن الله مصدرها هذا على الأقل ما يمكن افتراضه في غياب أي تبرير أخر.

أما في كتاب كانط "الدين في حدود بساطة العقل"، يحاول أن يظهر لنا أن المسيحية ليست دينا سماويا فقط بل هي دينا طبيعيا أي عالميا وكونيا: أي إنسان يملك عقلا عمليا يمكنه الوصول إلى المبادئ السامية للمسيحية التي هي نفس مبادئ العقل

العملي. وللبرهان على هذه القضية، انكب كانط على تأويل دقيق لموعظة بابوية، التي اعتبرها تحتوي على الأسس الأخلاقية للمسيحية. وهنا نجد أيضا التمييز الذي وضعه كانط في كتابه السابق الذكر بين العمل بالواجب والعمل وفق الواجب. إليكم هذا المقطع" لقد سمعتم ما قاله الكتاب المقدس" لاتزن"جيد جدا. أقول لكم:كل من ينظر إلى امرأة بشهوة فقد ارتكب بالفعل جرم الزنا"، يفهم كانط هذه الآيات على أنها إدانة للنفاق كسلوك خارجي فقط، لأنه متوافق خارجيا مع تحريم الزنا، ومع ذلك من يخاف هذا القانون إذا كانت الرغبة حقيقية جدا. وبصفة عامة، يذكرنا كانط بأن تعاليم المسيح لن تكون مختلفة عن القانون العبراني، لكنه قام بتأويله ليتطابق مع العقل العملي. لنلاحظ أن للوصول إلى الاقتناع بأن التوراة متطابقة مع العقل العملي، لا بد للمسيح من تأويل التوراة. ثم نجد حتى كانط نفسه يقوم بتأويل تعاليم المسيح لإعطائها بعدا فلسفيا وعموميا بين الناس.

على أساس هذه التأويلات المتتالية، يمكن أن نوجه أول اعتراض على كانط: "دين طبيعي وعالمي" يعني أن كل إنسان بإمكانه الوصول إلى الحقائق التي يعلمها. لكن إذا كان محيرا منذ البداية أن الله أرسل كتبه السماوية إلى كل الناس، حاملة قوانين أخلاقية ثاوية في عقولهم سيكون من المدهش أن هذه الكتب السماوية وخاصة العهد القديم تخضع لتأويلين؛ اقل ما يقال عنهما أنهما غير متطابقين؟ إذا أضفنا إلى ذلك، أن الكتاب المقدس الأصلي الذي من المفترض أنّه مستوحى من الله؛ يعج بالكثير من ا لتناقضات في الشيء الذي يشوش على أصالة وقيمة هذا الكتاب المقدس. ألا يحاول كانط أن يقيم فلسفته الأخلاقية بالاعتماد على سلطة الكتاب المقدس؟ كما يمكن الاعتراض على الأهمية الكبيرة التي يعطيها كانط للمسيحية في فلسفته الأخلاقية:" بإتباع الدين الأخلاقي الذي لا نجد من الأديان من يعبر عنه أكثر من المسيحية..." فهذا التأكيد المكتوب بين مزدوجتين، غير مبرر وينم عن تعصب كبير. فالأمر محير مادام نصل في النهاية إلا أن المسيحية ليست إلا نسخة مطابقة لليهودية. إذا كان المسيح حسب أقواله جاء ليتمم رسالات الأنبياء فليس هناك في العمق أي اختلاف بين اليهودية والمسيحية.وحتى لو كان هناك اختلاف فلن توصف المسيحية بأنها ديانة أخلاقية وفي حين أن اليهودية تحرم من هذا الوصف. فالسؤال الدقيق يتمحور على الأقل حول ما نسميه أخلاقيات الثواب: الجزاء للمصلحين والمتقين،

العقاب للفاسـدين والعصاة. إذا كان من غير المرفوض أن التوراة تحتوي أحيانا على فلسـفة أخلاقية واردة في سـفر جوب وسـفر الجامعة المدانة لها.غير أن كانط لا يأخذ بعيـن الاعتبـار، عندمـا يلاحـظ أن العـادل يعانـي أحيانا من آفات طبيعيـة ذات مصدر إلهي، وأحيانا نجد الإنسـان غير الصالح ينعم بالثروة.كل واحد مدعو إلى العودة إلى الحكمة الإلهية دون كشف النوايا.

لنفتـرض علـى كل حـال، أن اليهودية بطابعها لا أخلاقي غير مبنية على أساسـها الذاتـي. فالأمـر الأكثـر تناقضـا هـو أن كانط بنقـده الضمني لأخلاقيـات اليهودية يتهم بالضـرورة التـوراة حيـث تظهـر أخلاقيـات الثـواب مباشـرة. والحـال أن هـذه التوراة باختلاف أسفارها التي نضعها جانبا، وظفتها المسيحية تحت اسم العهد القديم. البحث عن الحظوة الدينية هل هو غائب أو حاضر في الكتب نفسها سواء المعتمدة من طرف اليهود أو المسيحيين؟ هنا يظهر بشكل لافت التحيز الذي يبديه كانط لصالح المسيحية مما يجعل أية موضوعية فلسفية قبلية عير ممكنة. نؤكد على أن هذه الموضوعية عليها أن تكون قبلية بدون أن تكون بالضرورة بعدية. لكن كانط لا يبرهن إطلاقا على تفوق المسيحية في المجال الأخلاقي، من الممكن القول بأن العهد القديم هو الأخر مليء بأخلاقيـات الثـواب التـي يقـف عندها كانـط صامتا. في نفس المنطـق يكتب"لا يوجد إلا دين حقيقي واحد". كيف يمكن أن تكون المسـيحية هي الدين الحقيقي والمسـيح نفسـه جاء ليكمل الدين المحرف أي اليهودية؟ أخيرا ومن خلال ما كتبه كانط يتبن" بأنه متسـرع وأقل فلسـفيا:" أقبل هذه القضية كما هي ودون برهان: أي عمل يفكر فيه الإنسـان للتقرب من الله بعيد عن السـلوك الطيب فهو وهما دينيا وعبادة خاطئة:"هناك بعض السـلوكيات التي تقرب من الله لكم من شـبه مؤكد هو أن السـلوك الحسـن هو مـا يرضـي اللـه. إذن فهذه القضيـة تحتاج إلى برهان، إذا كانت ممكنة. هناك الكثير من الشواهد التي تدل على أن كانط أسّس فلسفته الأخلاقية على أساس غير فلسفي أي ديني بطبيعة الحال.

الكاثوليكية: هل هي دين فلسفي؟

سـنحاول دراسـة الدين الذي يقال عنه أنه فلسـفي.فاختيارنا للمسـيحية ليس لأنها منتشرة في مجتمعاتنا المسماة لاتينية بل لأن نسقها الديني منظم بما فيه الكفاية مقارنة

مع الأديان الأخرى. هناك ملاحظات منهجية تفرض نفسها على كل حال. سبق لنا وأن عالجنا فكرة أن التأسيس الفلسفي لا يمكنه أن يكون خارج الفلسفة.لهذا فالطريقة التي تبدأ بها أية فلسفة مهم للغاية. لنشير إلى أن البداية ليست بالضرورة بادية في الكتابات الأولى للفيلسوف. هكذا فالشك المنهجي لديكات لم يبدأ في كتاباته الفلسفية الأولى. إذا كان بعض الفلاسفة يظهر على أنهم غير مرتبطين بالبداية الفلسفية الأولى، فلأنهم يعتبرون أن ليس هناك بالضبط ما يقال حول تأسيس الفلسفة أو أيضا لأن كل تأمل فلسفي يساهم في التأسيس الفلسفي.

حتى الدين نفسه نجد نقطة انطلاقه في الوحي الذي هو خارج العقل والإنسان نفسه. بالفعل هذا ما وجدنا في دراستنا لنصوص كانط وليبنز باعتمادهما على معطيات دينية خاصة ودون برهان فلسفي عليها. سنجد هذا العامل الخارجي في التأسيس للكاثوليكية:" في نقطة انطلاق أي تأمل فالكنيسة تتعهد بأن تكون حارسة الرسالة السماوية..فالمعرفة التي تقدمها للإنسان لا دخل له فيها فهي مستلهمة لأقوال الله" فالأمور واضحة إذن: فالحقائق الدينية هي سابقة على كل تأمل بشري. بالنظر إلى مصدرها الإلهي فهي غير قابلة للدحض.فقبل أي تفكير بسيط، يعرف الفيلسوف الكاثوليكي إلى أين تتجه فلسفته؟ فهذه الأخيرة ليس لها إلا دور ثانوي في تأكيد الحقائق الدينية السابقة على كل تأمل فلسفي. وفي نفس السياق يقول جون بول الثاني:" الكنيسة من جهتها ستعمل على تشجيع كل المجهودات التي يبذلها العقل للوصول إلى حياة كريمة للناس. فهو يرى بأن الفلسفة أداة مساعدة لمعرفة الحقائق الأساسية لحياة الناس. وفي نفس الوقت فهو يعتبرها تقدم مساعدة أساسية لتعميق الإيمان الديني ولإيصال الرسالة الإنجيلية إلى بقية العالم، وهذا ما نعتبره يذهب في اتجاه مضاد للفلسفة ووظيفتها.

وفي السياق نفسه نجد البابا جون بول الثاني يدين الكثير من التيارات الفلسفية: الانتقائية والتاريخانية والعلموية والبراغماتية والعدمية، ويعدها تيارات خطيرة وخاطئة.

يجب علينا أن نرفض أن يوصف فكر ما بأنه فلسفة إذا كان يرفض المناقشة، حتى ولو كان عقلانيا؛ فمن رهانات الفلسفة الروح النقدية والانفتاح على التيارات الأخرى.

لذلك علينا أن نكون واعين بماهية الفيلسوف، وبكونه لن يستفيد من أية قضية غير قابلة للدحض. فالفيلسوف له مصلحة في انتقاد أفكاره حتى يتبين مصداقيتها. في

المقابل نجد أن المذهب الديني لن ينظر إلى النقد البشري إلا من زاوية العطف أو الاحتقار أو العنف، لكن ليس حقيقة كما لا نراه إلا إنصاتا حقيقيا.

يمكن القول بان الحقائق الدينية تسبق أي تأمل فلسفي. لكن ألا يمكن القول بأن الإيمان بالحقائق الدينية لا يمكنها أن تكون بالنسبة لها مبررة فلسفيا؟ ليس الأكثر من أن يعترف بذلك المذهب الكاثوليكي: "الاعتقاد في كون الحقائق الدينية لا تظهر حقيقية بالاستناد على نور عقلنا الطبيعي" وعلى كل حال،حتى يتماهى الإيمان مع العقل، وضع الله شواهد خارجية لوحيه": "معجزات المسيح والقديسين. النبوءات، عالمية وقدسية الكنيسة، انتشارها واستقرارها". فهل يوجد عقل الفيلسوف في عداد هذه اللائحة أو علامات يقينية للديانة المسيحية؟ على الأقل هذا ليس واردا.

خلاصات:

بقراءتنا للفلسفات الدينية لليبنز وكانط، نجد أن فلسفاتهم تخترقها الكثير من العيوب والنواقص، ليس فقط باعتبارها أخطاء تمس بنية فلسفتهما؛ لكن أيضا التسليم بسلطة الكتاب المقدس وبدون دليل.يمكننا الاستنتاج بأن أية فلسفة دينية إما أن تكون خارجة على الدين، إذا كانت الفلسفة تسبق الدين؛ وإما خارجية على الفلسفة، إذا كانت كما وجدنا في دراسة كانط وليبنز بأن الدين يسبق الفلسفة.

هذا لا يعني بالضبط أن الفيلسوف بالضرورة لا ديني. مادام أن الإنسان قبل أن يكون فيلسوفا، فهو مثل كانط وليبنز له معتقداته الدينية.لكن عليه أن يشرعن معتقداته الدينية باستدلالات فلسفية وإدماج دينه في فلسفته. ويمكنه أن يشرح لماذا تركت فلسفته مكانا للدين. ويمكنه كما فعل باسكال من قبل إبراز العقل وبالتالي الفلسفة محدوديتهما الذاتية.:"الإجراء الأخير للعقل هو تعرفه على لانهائية الأشياء التي تتجاوزه" فالفيلسوف يمكنه أن يكون متدينا، لكن لن يكون كذلك باعتباره فيلسوفا. فالفلسفة يمكن أن تصل بنا بدون مناقشة إما إلى التوحيد أو تعدد الآلهة. لكن الخطوة التي تصل بنا إلى التوحيد هي نفسها التي ستخرجنا من دائرة التفلسف. ففرضية الدين الفلسفي، هي مرفوضة من البداية. أما الإلحاد فهو ليس إلا رفض لتصور خاص لإله أو للآلهة. وهذا ما نجده عند سبينوزا مع اعترافه بوجود اله، يمكن اعتباره ملحدا؛ بالمعنى الذي يرفض به وجود إله مجسد على شكل بشري.ونفس الأمر ينطبق

على الفيلسـوف مارسـيل كونشـيه الذي يهاجم بلا هوادة فكرة الإله القوي والطيب في نفـس الوقـت "كمـا انـه لا يظهـر في اللحظـات التي ينبغي أخلاقيـا أن يظهر فيها وإذا كان موجـودا بالفعـل فهـو مذنب. فمفهوم الإله المذنب والشـرير متناقض، لهذا يجب الاسـتنتاج بأن الإله غير موجود". فهذا الاسـتدلال وغيره من الاسـتدلالات الفلسـفية ليسـت في منأى عن النقد الفلسـفي. لكن هناك الكثير من الاسـتدلالات العقلانية التي من الممكن حتى المتحمسين دينيا متابعتها بحس نقدي. فالإلحاد يمكن أن يتخذ طابعا فلسفيا أو من الممكن أن تكون الفلسفة نفسها الحادية.